بغى

لم يخطىء[1] الفرزدق تصوير العرب حين قال فى لاميته المشهورة :

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل

وقد كان صديقى العزيز عبد الرحمن عزام جنيا منذ أيام حين قرأ جملة قصيرة فى فصل طويل فصال وجال ، وطلب الطعن والنزال ، وخيل إليه أنه فى ميدان قتال وكتب ذلك الفصل الطويل الذى نشرته له البلاغ مدافعا عن العرب ولم يهاجمهم أحد ، ذائدا عن كرامتهم ولم يغض منهم أحد ، مثبتا لمجدهم ولم ينكره عليهم أحد ، داعيا إلى المبارزة والمناجزة كأنه فى ميدان من هذه الميادين التى كانت تتجلى فيها قوة الفرسان من العرب وشجاعتهم وبأسهم والتى تجلت فيها قوته هو وشجاعته هو ، وبأسه هو فى أيام ليس عهدها ببعيد .

ولكن أحدا لم يبرز له لأن أحدا لم يسىء إليه ولا إلى العرب ، ولم يقترف هذا الإثم الذى أغضبه وأحفظه وملأه بهذه العزة الشامخة

---

(١) ٨ - ٩ - ١٩٣٣

الباذخة ، عزة عامر بن الطفيل ومن إليه من فرسان العرب الأقدمين .

فصديقى عبد الرحمن عزام يعلم حق العلم إذا حلا إلى نفسه وسأل ضميره – وما أشك لحظة فى أن ضميره نقى صادق – أنى لست من خصوم العرب ، ولا المنكرين لما كان لهم من مجد مؤثل وعز باق على الزمان . وهو يعلم حق العلم أنى لست خصما للنهضة العربية الحديثة ، ولا لهذه الدعوة التى يذيعها العرب إلى وحدتهم القومية بأى شكل من أشكالها ، لأنى تحدثت إليه فى ذلك غير مرة منفردين وبملأ من الناس ، فهو إن شك فى شىء فلا يستطيع أن يشك فى أنى أبعد الناس عن الإساءة إلى العرب أو الازورار عنهم .

ولكنه مع ذلك اختزل هذه الجملة القصيرة من ذلك الفصل الطويل وكتب حولها ذلك المقال الذى نشر فى البلاغ . والغريب جدا أن هذا المقال نشر فى نفس اليوم الذى نشرت فيه « الشعب » مقالا مثله .

وكنت أفهم أن تذهب « الشعب » هذا المذهب فإن بين « الشعب » وبينى من أسباب الخصومة ما يدفعها إلى ألوان من الكذب والتجنى وإلى ضروب من الكيد والدس . فأما أن يذهب صديقى عبد الرحمن عزام هذا المذهب فأمر لا أستطيع له تأويلا ، وفوق كل ذى علم عليم .

وقد أثار مقال صديقى عبد الرحمن عزام حركة أو شيئا يشبه الحركة فى دمشق ، لو كنت مكانه لا ستحيت لأنى كنت سببا

لإثارته، فإن إغراء الناس بالناس عمدا أو عن غير عمد ، ودعوة الناس إلى الجناية على حرية الرأى عمدا أو عن غير عمد ، ليس من الأشياء التى يبتهج بها أو يطمئن إليها كاتب فضلا عن أن يبتهج بها أويطمئن إليها مجاهد فى سبيل الحرية والاستقلال .

وكنت أحسب أن صديقى عبد الرحمن عزام سيكون أسرع الناس إلى إنكار هذا الشر انتصارا للعرب ، وظهورا لحجتهم وتثبيتا لمجدهم الأثيل . ورأت البلاغ لذة غريبة فى أن تطيل الحديث حول هذا الشر ، فتنشر ما قالته صحيفة من صحف دمشق ، ثم تنتظر يوما حتى إذا كان الغد عادت فلخصت ما نشرته هذه الصحيفة ليكون أشد استقرارا فى نفوس القراء ، وانتشارا بينهم ، ثم أخذت تناقش هذه الصحيفة .

وبعد أن تقرر أن الدكتور طه حسين أخطأ خطأ عظيما ما فى ذلك شك . ولذلك أحجم عن الرد على الأستاذ عبد الرحمن عزام

فأنا أهنىء البلاغ بما لا أهنىء به صديقى عبد الرحمن عزام من هذه المهارة فى إذاعة الشر على الناس فى غير تحر ، لا تثبت . وأحب أن أقول للبلاغ ولصديقى عبد الرحمن عزام إنى لم أحجم عن الرد ، ولم أمتنع عن المناقشة اعترافا بالخطأ ، أو عجزا عن الرد ، وإنما عرفت نية القوم فأعرضت عن جدالهم ، وكرهت أن أشغل المصريين بالكلام الذى لا غناء فيه والجدال فى أمر لم يرد به وجه الله ، ولا وجه آخر من هذه الوجوه المشرقة الطلقة ، وإنما أريد به وجه قاتم مظلم ، لا يستطيع أن يجلو نفسه للناس .

ولعل «البلاغ» قد فهمت عنى ، ولعل صديقى عبد الرحمن عزام قد كان أسرع منها إلى الفهم وإلا فإن صديقى عبد الرحمن عزام والذين يكتبون جميعا فى صحيفة البلاغ ، ليسوا من الجهل بالتاريخ والغفلة عن حقائقه بحيث يعتقدون أن حكم العرب فى مصر قد كان كله خيرا وبرا ، وعدلا وإنصافا . وقد برىء من الجور والحيف وخلص من البغى والطغيان . وهذا كلام يقوله العامة وأشباه العامة . فأما المثقفون – وفى مقدمتهم صديقى عبد الرحمن عزام وكتاب البلاغ – فيعلمون حق العلم أن حكم العرب لمصر كان فيه الخير أول الأمر حين حمل إلى مصر الإسلام ولكنه بعد ذلك كان كحكم العرب لجميع البلاد الإسلامية مزاجا من الخير والشر ، ومن العدل والجور . وقد ضاقت مصر به وثارت عليه ، وجدَّت فى الثورة حتى ظفرت باستقلالها من السلطان العربى ، وحتى كلفت الخلفاء من بنى أمية والعباس عناء غير قليل . وإنه لمما يحزن أن نحتاج إلى تقرير مثل هذه الأشياء التى لا ينبغى أن تحتاج إلى تقرير ، لأنها من الأوليات التى لا يمكن فيها الاختلاف .

وعفا الله عن قوم يريدون شيئا فيسلكون إليه طريق الذود عن العرب والدفاع عن الأحساب والأنساب ، لأنهم لا يستطيعون أن يسلكوا إليه طريقه الواضحة المستقيمة . ولو قد سلكوها لو جدوا شوكا وحسكا كثيرا .

أما بعد فأحب أن يعلم صديقى عبد الرحمن عزام ، وأن تعلم البلاغ أنى لا أخاف مثل هذا المكر ، ولا أحسب له حسابا ، وإنما

أشفق منه على أهله ، لأن الله عز وجل قد أنذر أهل المكر السيىء بعذاب شديد .

وأعود فأختم هذه الكلمة كما بدأتها ببيت من شعر الفرزدق يظهر أنه قد صور أصحابنا تصويرا دقيقا ، وهو

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل

أما إخواننا من أهل الشام فإن لى معهم حديثا آخر .